SEBHA UNIVERSITY JOURNAL OF HUMAN SCIENCES VOL.25 NO. 2 2026
DOI: 10.51984/8TK9AG81

جامعة سبها للعلوم الإنسانية مجلة
Sebha University Journal of Human Sciences

Journal homepage: http://www.sebhau.edu.ly/journal/johs

التداول القصدي للحوار في الخطاب القرآني (حوارات سورة طه أنموذجاً)

عبد الكريم محمد صالح السعيدي

قسم اللغة العربية، كلية التربية، جامعة طبرق، ليبيا.

الملخص

تمثل دراسة الخطاب القرآني تحدياً منهجياً وبحثياً يقتضي تجاوز المقاربات التقليدية التي تركز على الجانب الصوري البحت للغة، وفي هذا السياق تبرز التداولية كأداة تحليلية قوية تتيح دراسة اللغة في مجال الاستعمال والوظيفة التوصيلية. ولا شك أن دمج المناهج اللسانية الحديثة، كالتداولية، في تحليل النص القرآني هو أمر بالغ الأهمية، حيث يسهم في الكشف عن جوانب جديدة من المقاربات التداولية في القرآن الكريم، وفي الوقت نفسه يفتح آفاقاً لفهم الأبعاد والغايات الإلهية للخطاب القرآني، واللغة في المنظور التداولي ليست مجرد نظام من القواعد النحوية المجردة، بل هي لفظ معين يؤديه متكلم معين في مقام معين لأداء غرض تواصلي إبلاغي محدد.

الكلمات المفتاحية:

القصدية
التداولية
الخطاب القرآني
أفعال الكلام
سورة طه
السياق
الحوار

Pragmatic Intentionality of Dialogue in the Qur'anic Discourse (The Dialogues of Surah Taha as a Model)

Abdul Karim Mohammed Saleh Al-Saeedi

Department of Arabic Language, College of Education, University of Tobruk

A B S T R A C T

Studying Qur'anic discourse presents a methodological and research challenge that necessitates moving beyond traditional approaches focused solely on the formal aspects of language. In this context, pragmatics emerges as a powerful analytical tool that allows for the study of language in the realms of usage and communicative function. Integrating modern linguistic approaches, such as pragmatics, into the analysis of Qur'anic text is of paramount importance. It contributes to revealing new facets of pragmatic approaches within the Holy Qur'an, while simultaneously opening new horizons for understanding the divine dimensions and objectives of Qur'anic discourse. From a pragmatic perspective, language is not merely a system of abstract grammatical rules, but rather a specific utterance performed by a specific speaker in a specific context to achieve a specific communicative purpose)

Keywords:

Intentionality
Pragmatics
Qur'anic discourse
Speech acts
Surah Taha
Context
Dialogue

المقدمة.

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

تهتم التداولية بدراسة اللغة في ضوء استعمالها، متجاوزة البنية السطحية إلى المقاصد والأغراض الكامنة وراء الأقوال، ولا شك أن الخطاب القرآني يمثل أرقى نماذج التواصل اللغوي، حيث تتجلى فيه قدرة المتكلم - سبحانه وتعالى - على توظيف اللغة توظيفًا دقيقًا يحقق مقاصد سامية، وقد حظي هذا الخطاب بعناية الباحثين في مختلف العصور، غير أن المناهج اللسانية الحديثة - ومنها التداولية - فتحت آفاقًا جديدة لفهم آلياته التواصلية.

وتأتي القصدية - بوصفها جوهر النظرية التداولية - لتؤكد أن الخطاب القرآني ليس عبثيًا أو اعتباطيًا، بل هو خطاب محكم البناء، دقيق الدلالة، يسعى إلى تحقيق تأثيرات محددة في المتلقي.

ويُعنى هذا البحث بدراسة مفهوم القصدية (Intentionality) في ضوء النظرية التداولية (Pragmatics) وتطبيقه على تحليل الخطاب القرآني، متخذًا من هذه السورة المكية أنموذجًا تطبيقيًا، وذلك من خلال تحليل بعض الظواهر التداولية كالأفعال الكلامية والإشاريات والحوار، وكشف مقاصدها السياقية.

*Corresponding author:
E-mail addresses: Kkrem6104@gmail.com

Article History : Received 22 April 2026 - Received in revised form 28 July 2026 - Accepted 4 August 2026

وتعدّ القصدية من أبرز مفاهيم الاتجاه التداولي في دراسة النصوص القرآنية، إذ تشير إلى نية المتحدث في توجيه الرسالة، مع مراعاة السياق والتفاعل بين المتحدث والمتلقي، ويهدف هذا البحث إلى دراسة كيفية توظيف القرآن للقصدية التداولية في توصيل معانيه وتحقيق أهدافه البلاغية والتربوية من خلال سورة طه أنموذجًا، حيث تحتوي سورة طه حواراً بين الله تعالى وسيدنا موسى عليه السلام، وأحداثاً تربوية ودعوية مع بني إسرائيل، ما جعلها مادة مناسبة لدراسة القصدية التداولية في القرآن الكريم.

ويستعرض البحث الجذور الفلسفية للتداول القصدي – الذي يمثِل جوهر توجّه الوعي نحو موضوع ما في الفينومينولوجيا – وتطورها إلى مفهوم تداولي يركز على قصد المتكلم (القوة الإنجازية) والسياق الخارجي (المقام).

وقد أظهرت النتائج أن القصد الإلهي في سورة طه لا يقتصر على الدلالات الحرفية، بل يتجلى بشكل رئيس في وظائف تداولية غير مباشرة؛ إذ استُخدم النهي لتحقيق أغراض عليا ك (التطمين والتصبر والمواساة)، واستُثمر الحوار لتحقيق القصد الحجاجي والإقناعي، وتغيير حال المتلقي (كالتحول الإيماني للسحرة).

فالبحث يؤكد مركزيةَ السياق النزولي كآلية أساسية لتحديد القصد الإلهي، مشيراً إلى أن علماء التفسير المتقدمين كانوا تداوليين بامتياز في ربطهم النص بمقاماته.

إشكالية الدراسة.

تتمحور الإشكالية البحثية في هذا البحث حول تساؤل مركزي: كيف تتجسد القصدية باعتبارها الركيزة الأساسية التي تقوم عليها التداولية في الخطاب القرآني، وتحديداً في سورة طه؟ وهل يمكن لآليات تحليل الأفعال الكلامية (كالقوة الإنجازية والاستلزام الحواري) الكشف عن المقاصد الإلهية غير المباشرة (الضمنيّة) التي تتجاوز المعنى الحرفي للتركيب اللغوي؟

إن الإجابة على هذه الإشكالية تستلزم فحص كيفية استخدام السياق والقرائن المختلفة كآليات مساهمة في تحديد المعنى القصدي التواصلي، ليس فقط على مستوى المتكلم البشري بل على مستوى المتكلّم الإلهي (المرسِل الأسمى).

أهداف الدراسة.

لتحقيق مقاربة شاملة للإشكالية المطروحة؛ يسعى هذا البحث إلى تحقيق مجموعة من الأهداف المتكاملة، التي تجمع بين التأصيل النظري والتاريخي ثم التطبيق التحليلي على النحو التالي:

1 - الهدف النظري: تأصيل مفهوم القصدية (Intentionality) لغوياً وفلسفياً، من منطلقاته الفينومينولوجية عند هوسرل وبرنتانو، ثم ربطه بالبنية التداولية الحديثة عند سيرل، عبر تحديد العلاقة بين نية المتكلم (القصد) والفعل الذي يريد إنجازه (القوة الإنجازية).

2 - الهدف التاريخي: إثبات أن النظرة القصدية التداولية لم تكن غريبةً عن التراث العربي، بل تمثلت في مقاربات المفسرين والبلاغيين المتقدمين، إذ يهدف البحث إلى تأكيد أن هؤلاء العلماء كانوا تداوليين بامتياز لربطهم النص القرآني بمقاماته الخارجية (أسباب النزول)، وهو ما يُعرف اليوم بالنظر إلى المعنى المقامي كعمدة للتفسير.

3 - الهدف التطبيقي: تحليل سورة طه كنموذجٍ غنيٍ بالأنماط الحوارية، وتنوع الأفعال الكلامية، وتحديد الوظائف التداولية للقصد الإلهي الكامن وراء هذه البنى النصية، سواء في الخطاب الموجه للنبي (صلى الله عليه وسلم) أو في حوار موسى (عليه السلام) مع فرعون.

4 - الهدف التحليلي: تحديد آليات السياق اللغوي والمقامي التي تسهم في تحويل الدلالة الحرفية (القوة اللفظية) إلى دلالة قصدية (القوة الإنجازية والتأثيرية)، وإظهار دور هذه الآليات في الكشف عن الدلالة المقصودة التي لا يمكن استخلاصها من البنية الشكلية وحدها.

سبب اختيار الموضوع.

يُعد اختيار مفهوم القصدية في الاتجاه التداولي أمراً مبرراً علمياً، حيث إن التداولية هي الدراسة التي تركز على اللغة في سياق التواصل والاستعمال، فالقصدية هي الأساس لأي عملية تواصلية، وبدون فهم قصد المتكلم، تظل الدلالة قاصرةً ومحصورةً في إطارها الشكلي، فدراسة القصدية تتيح فهماً أعمق لغايات الخطاب القرآني ومقاصده الإبلاغية العليا.

كما تنبع أهمية الدراسة من سعيها لدمج الأطر النظرية اللسانية الحديثة مع المعطيات النصية في القرآن الكريم، مما يسهم في الكشف عن البعد الإبلاغي العميق للغة القرآنية، أما اختيار سورة طه كنموذج تطبيقي، فيعود إلى غناها النصي وتنوع أنماط الخطاب فيها، ما يجعلها مختبراً مثالياً لدراسة التداول القصدي.

وتظهر أهمية سورة طه في الآتي:

1 - خطاب التثبيت والمواساة: تبدأ السورة بخطاب إلهي موجه للنبي محمد صلى الله عليه وسلم، بقصد التسلية وتخفيف العبء عنه، كما في قوله تعالى: (طَه مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى)، هذا الافتتاح يحدد القصد الكلي (Macro-Intentionality) للسورة، وهو قصد المواساة والتلطيف.

2 - الخطاب الحجاجي والتكليف: تحتوي السورة على تفاصيل دقيقة لقصة موسى عليه السلام، وما تضمنته من حوارات تكليف إلهي، وحوارات مناظرة حجاجية مكثفة مع فرعون، هذه الحوارات تشكِل أمثلةً واضحةً للجهد الإبلاغي الهادف إلى الإقناع وتغيير حال المتلقي (القصد التأثيري).

3 - تنوع الأفعال الكلامية: تتضمن السورة عدداً كبيراً من الأفعال الكلامية الإنشائية الطلبية، خاصة تراكيب النهي، التي تستخدم لتحقيق وظائف تداولية غير مباشرة، وهو ما يكشف عن براعة الخطاب القرآني في نقل الدلالات العميقة.

منهج الدراسة.

لتحقيق الأهداف السابقة اعتمدت الدراسة المنهج الوصفي التحليلي لتطبيق نظرية الأفعال الكلامية (Speech Acts Theory) على نماذج مختارة من حوارات وتراكيب سورة طه، خاصةً تراكيب النهي والخطاب الحجاجي، حيث يعمل الباحث على وصف الظواهر التداولية، ومنها القصدية، وذلك عن طريق الملاحظة وطرقها المختلفة، ثم يقوم بعمل ما يطلق عليه تحليل الظواهر ومقارنتها بشكل أكثر تفصيلا، متكئاً على نظرية الأفعال الكلامية وتقسيماتها (مثل تصنيفات سيرل)، ومستفيداً من التفاسير البيانية التي عادة ما كانت تبحث عن القوة القصدية الكامنة وراء التركيب اللغوي.

التمهيد: الإطار المنهجي لمفهوم التداولية والقصدية.

أولاً: التداولية كنظام لكشف المقاصد (The Pragmatic System).

التداولية هي المنهج الذي يدرس اللغة في الاستعمال أو التواصل (نحلة، 2002، ص.14) ، متجاوزاً بذلك المقاربات الصورية الضيقة إلى دراسة اللغة في سياقها الفعلي، وتحدد التداولية المعنى القصدي التواصلي بناءً على تحديد

قصدية المتكلّم في إنجاز الأفعال الكلامية، وللوصول إلى المعنى المقصود، يجب على المخاطَب الاعتماد على قصدية الملفوظ ودلالته، وأن اللجوء بالضرورة إلى معطيات السياق الخارجي (المقام والقرائن والتأثير).

إن هذه المعطيات السياقية هي التي تحكم عملية التأويل القصدي، فالبنى اللغوية لا تُفصل عن وظيفتها، وقد أدرك النحاة العرب الأوائل ذلك عندما درسوا السياقات التي يُنجز فيها الكلام، انطلاقاً من الترابط بين بنية المقال ومقتضيات السياقات المختلفة (بحيري، 1997، ص.125).

إنَّ اللغة تملك قوّة دلاليّة تخضعها لتقبلّ الشّرح المتعدّد والمتنوعّ والمتفرع (الإلهي والكريزي، 2014، ص.43) ، أي أنّ للفظ الواحد دلالات كثيرة تختلف من متلق إلى آخر، ومن سياق إلى سياق آخر، ولتوضيح ذلك أكثر أقدّم هذا الحوار القصصي، قال عمر بن الخطاب - رضي الله عنه- لحذيفة بن اليمان - رضي الله عنه -: كيف أصبحت؟ فقال حذيفة: أصبحت أحبّ الفتنة، وأكره الحقّ، وأصلي بغير وضوء، ولي في الأرض ما ليس لله في السّماء، فغضب عمر- رضي الله عنه - غضباً شديداً، ودخل عليه علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - فقال لعمر: على وجهك أثر الغضب يا أمير المؤمنين؟ فقصّ عليه ما أغضبه من حذيفة، فقال علي: لقد صدق حذيفة، أمّا حبهّ للفتنة فهو يعني المال والبنين؛ لأنّ الله - تعالى – يقول: (إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ)، (سورة التغابن، الآية 15) وأما أنّهّ يكره الحقّ فهو يكره الموت، وأما صلاته بغير وضوء فيعني بها صلاته على النبّي - صلى الله عليه وسلم - وأما ما له في الأرض ما ليس لله في السّماء فهو يعني أنّ له زوجة وولدا، وليس لله زوجة ولا ولد، فقال عمر: والله لقد أقنعتني وأرحتني (موقع أهل الحديث، د.ت).

فمن خلال هذه القصّة يتضّح لنا تعدّد صور ودلالات اللفظ الواحد عند انتقاله من المتكلم إلى المتلقيين (عمر، علي)، وذلك كله راجع إلى التداول القصدي (فهم القصد وعدمه بالتعامل الظاهر مع النص)، وإنّ نجاح المتلقي في استلام الرسالة كما صيغت في ذهن المتكلم تتطلب بيان القصد (متضمنات القول)، ونجاح اللغة، والأبجدية الصّوتيّة في نقل الأثر الذّهني بين المتكلم والمتلقي، وبالصّورة المرادة، وبالطريقة الذّكيّة، ومن خلال استخدام الوسائل المناسبة مع القصد والهدف وفق رؤية متكاملة.

ثانياً: مفهوم القصدية (Intentionality):

إنّ القصدية (متضمنات القول) هي أحد المعايير النصّيّة السّبعة التي ذكرها (روبرت دي بوجراند) ضمن نظريتّه في لسانيّات النصّ؛ حيث يفقد النص نصيته إذا ما غاب عنصر منه، وهذه المعايير النصّيّة السّبعة هي: (الاتساق، الانسجام، القصدية، الموقفية، المقبولية، الإعلامية، التناص).

والقصدية تتضمن موقف منشئ النص وهدفه من بناء نص متماسك منسجم؛ لأنه لابد أنْ يكون للحدث اللغوي نية الدلالة، فليس من النصّ ما يتلفظ به المكره، ولإدراك مفهوم القصدية أكثر؛ سنتناول مفهومها في اللغة وفي الاصطلاح.

أ- مفهوم القصدية لغة: أخذت كلمة قصدية من الفعل قصد، وقد جاء في لسان العرب: (القصد استقامة الطريق قَصَد يَقْصِدُ قصداً فهو قاصِد وقوله تعالى: (وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ وَلَوْ شَاء لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ) (سورة النحل، الآية 9) ، أَي على الله تبيين الطريق المستقيم، والدعاءُ إليه بالحجج والبراهين الواضحة، ومنها جائر، أَي: ومنها طريق غير قاصد، وطريقٌ قاصدٌ سهلٌ مستقيمٌ، وسَفَرٌ قاصدٌ سهلٌ قريبٌ (المصري ، د.ت ، ص 353، 1981) ، وفي التنزيل العزيز: (لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لاَّتَّبَعُوكَ وَلَكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ) (سورة التوبة، الآية 42).

ب - مفهوم القصدية اصطلاحا:

القصديةّ هي: موقف منشئ النصّ من كينونة صورة ما من صور اللغة، وهذه الصورة قصد بها المتكلم نصّا يحمل دلالة بعينها، وهذا النصّ وسيلة للوصول إلى غاية ما، ويشترط في النص تحقق الاتسّاق والانسجام (السعيدي، 2022، ص 38-41)؛ من أجل تحقق القصدية.

وقد عرفها سيرل أيضا بقوله: (هي تلك الخاصية لكثير من الحالات والحوادث العقلية التي تتجه عن طريقها إلى الأشياء وسير الأحوال في العالم أو تدور حولها أو تتعلق بها) (سيرال، 1983، ص1).

فالقصدية تبعا لهذا التعريف: اعتقادات ورغبات موجودة داخل الإنسان تنتج عنها أفعالا ظاهرة في الواقع، وعليه فكل شيء يحدث في العالم له قصدية دفعت إليه، أي أنّ (الحالات القصدية) عند (سيرل) هي تلك الحالات التي تحتوي مضمونا قصديّا يدل على شيء أو موضوع، وتظهر في شكل سيكولوجي معين يحدد لها اتجاه مطابقة، وقصدية هذه الحالات قصدية باطنية؛ لأنها أفعال عقلية، فالعقل هو الأساس العميق الذي تشتق منه الصور القصدية الأخرى كقصدية الصور والرموز واللغة (سيرال، 1983، ص2) ، ومن خلال هذا التعريف يمكن ربط القصدية بالنية؛ لأنها حسب (هوسرل) (علاقة إحالة بين الوعي أو أفعال الوعي وموضوعات الوجود الخارجي(سيرال، 1983، ص3) ، فكل فعل إنجازي في الوجود الواقعي له قصد باطني أحال إليه، وهذا ما جعل (سيرل) يربط قصديةّ الأفعال العقليّة بقصديةّ الأفعال الكلاميةّ، ثمّ يقسّم القصديةّ إلى قسمين (باطنيّة ومشتقةّ):

1 – فالباطنيّة (الأصلية) هي التي لا تخضع لملاحظ خارجي كالرّغبات والاعتقادات... فهي تمثيلات عقليّة خاضعة لذواتنا ومستقلة عن الملاحظ، وظهورها لا يكون إلا عبر المناقشات أو الحوارات.

2 - أمّا القصديةّ المشتقة فهي المعتمدة على الملاحظ مثل: قصديةّ اللغة.

وهذا يعني أنّ النيّة هي القصديةّ الباطنيّة التي لا يعلم بها إلا الله سبحانه وتعالى، وهي روح الأعمال في الدين الإسلامي؛ حيث لا يمكن فهم أي قول أو فعل دون الاحتكام إلى نية الشخص فيه كما يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا أَوْ إِلَى امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا، فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ) (البخاري، 1987، ص2).

فالفعل الإنجازي المباشر هنا يقتضي (الهجرة)، والفعل القصدي الباطني غير المباشر يقتضي (الزّواج من المرأة أو إصابة المال)، ومن هنا نتبين أهمية التداول القصدي في فهم الدلالات والمواقف وما إلى ذلك؛ لأنّ المعنى اللغوي صورة حقيقيةّ من القصديةّ، ولكنّه ليس قصدية باطنيّة، وإنما قصديةّ مشتقةّ من القصديةّ الباطنيّة لمستعملي اللغة.

ثالثاً: العلاقة بين التداولية والقصدية.

ترتبط التداولية بالقصدية ارتباطًا وثيقًا، فالتداولية تسعى إلى كشف القصد من وراء الكلام، فالمتلقي لا يفهم المعنى فهماً كاملاً ما لم يتعرف على مقاصد المتكلم، وهذه المقاصد لا تتضح إلا من خلال تحليل سياق الخطاب، ولذلك تعد التداولية "منهجًا حديثًا يُعتمد في مقاربة النصوص الإبداعية لدراسة المقاصد والأهداف التي ترمي إليها، انطلاقًا من قصد المبدع إلى التأثير في المتلقي".

رابعاً: الحوار القرآني من المنظور التداولي.

كثر الحوار وتنوع في القرآن الكريم، فمن حوار بين الله ومخلوقاته، ومن حوار بين المخلوقات فيما بينهم، ومن خلال ذلك الحوار يستطيع القارئ أن يسبر أغوار نفسه وأنفس الآخرين، ومن خصائص ذلك الحوار الإقناع والتأثير بقصد الإصلاح والتغيير، كما يتميز الحوار القرآني بالوظيفة التذكيرية المتعلقة بالخوف من الله، والإيمان بالغيب، والاستعداد ليوم الحساب والجزاء، وهذه الخاصية التذكيرية سقطت من قاموس التداولية الغربية فلم تشر إلى هذا المقصد القرآني (زيان، 2018، ص 511).

وتميز القرآن الكريم وتفرّد عن الكلام البشري في حواره من عدة أوجه نوردها فيما يلي:

أ - التنوع والشمول في معالجة القضايا الحيواتية للناس، فلم يقتصر الحوار القرآني على الجانب الديني العقدي، بل تجاوزه إلى معالجة الحياة الاجتماعية والحياة الاقتصادية والحياة السياسية للناس (فهو حوار شامل يتناول العقيدة والشريعة والأخلاق والمعاملات) (الشرقاوي، 1428هـ، ص 74)، وكذلك التداولية حيث هي تهتم بالمعالجة الشمولية للحوارات، وتدرس كل ما له صلة بها من شخوص، وأقوال، وأفعال، وسياقات داخلية وخارجية.

ب – التركيز على الفكرة لا على الأشخاص؛ فالحوار القرآني يسوق الحوادث والقصص من أجل الاعتبار والتذكير والوعظ والإرشاد، ويهتم بالمقاصد والأبعاد، فهو حوار خاص يركز على الخطاب أو الرسالة، أما التداولية فتهتم بالسامع كما تهتم بالمتكلم (جبريل، 2002، ص 8)، إذ يجب أن تراعى فيها أحوال المستمع السياقية.

ج – الحوار القرآني يتميز بوحدة الموضوع، ووحدة المقصد والهدف؛ فكل الحوارات التي وردت فيه يجمعها موضوع واحد هو ترسيخ مفهوم العقيدة في النفوس، وتقريره في العقول مع ما يترتب عن ذلك من عبادات ومعاملات (الشرقاوي، 1428هـ، ص 54).

خامساً: التحدي المنهجي في حوارات الخطاب القرآني.

عند تطبيق الإطار التداولي على الخطاب القرآني، يظهر تحدياً منهجياً يتمثل في التعامل مع طبيعة 'المتكلم' (الله تعالى) على أنه المرسِل الأسمى، وقصده مرتبط بالغايات الكلية للهداية والتشريع (مقاصد الشارع)، يؤكد هذا الاتجاه في التطبيق على أن المقاربة التداولية تحقق جدارتها في تحليل الحوارات القرآنية من خلال النظر إلى القرآن كالمُرسِل، والناس كالمستقبلين أو المتلقين، ولقد تبنت المقاربة التداولية الفكرة الأساسية التي ترى أن للنص القرآني بعداً تداولياً عاماً، رغم تحفظات بعض النقاد حول محدودية الدراسات التداولية في تقديم جديد جوهري عن التفاسير التقليدية.

وفي الواقع، المفسرون المتقدمون كانوا تداوليين بامتياز، حيث صرفوا معظم جهدهم لدراسة النص القرآني، وتوصلوا إلى أن للبعد الخطابي التداولي أهمية بالغة في تفسير النصوص القرآنية، وربطها بمقاماتها الخارجية والممثلة في أسباب نزولها (السياق)، هذا الربط بين النص والمقام هو جوهر عملية التداول القصْدي (عبد الرحمن، 1998، ص 15).

سادساً: نظرية الأفعال الكلامية وتصنيفاتها في التحليل القرآني.

تُعد نظرية الأفعال الكلامية (Speech Acts) الأداة التطبيقية الرئيسة لكشف التداول القصدي في الخطاب (سيرال، 1983، ص20)، فكل ملفوظ لغوي يمكن أن يُحلل إلى ثلاثة مستويات (صحراوي، 2005، ص 42-43):

1 – فعل الكلام أو الفعل القولي (Locutionary Act): البنية اللغوية الحرفية وما تحمله من (صوت، وتركيب، ودلالة) (عبد القوي، 2022، ص 25).

2 - الفعل الإنجازي (Illocutionary Act): التداول القصدي الذي يريده المتكلم من إنجاز القول (متضمنات القول) كالاستفهام، الطلب، الإخبار، الوعد، الوعيد.

3 - الفعل التأثيري (Perlocutionary Act): التأثير القولي الذي يطرأ على المتلقي (لازم فعل الكلام)، بمعنى الآثار المترتبة عن الفعل الإنجازي في المستمع كالإقناع، التخويف، الطمأنة، التثبيت، ويستلزم الفعلان الإنجازي والتأثيري الاتفاق معاً (أوستين، 1991، ص 100).

ويتم الاستفادة من التصنيفات الحديثة للأفعال الكلامية في التحليل القرآني وفق تقسيم جون سيرل الذي يصنف الأفعال إلى خمسة أنواع رئيسة تطويراً لنظرية أستاذه أوستن معتمداً على الغرض الإنجازي، واتجاه المطابقة بين الكلمات والعالم وليس على المعنى الحرفي فقط للكلمات، وهي:

1 - الطلبيات أو التوجيهيات أو الأمريات (Directives)، وهي الأفعال الكلامية التي تحاول جعل المخاطَب يقوم بفعل شيء ما، والتعبير عن رغبة المتحدث الحقيقية، ومن تلك التوجيهيات توجيه الله سبحانه وتعالى لموسى عليه السلام بخلع النعلين في قوله تعالى:(إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى) (سورة طه، الآية 12)، ويلحظ في الآية تغير مقصد الخطاب القرآني الى مخاطبة الله تعالى لنبيه موسى عليه السلام، وإكرام الله له، وبيان طهارة المكان الذي يخاطبه فيه.

2 - الإلتزاميات أو الوعديات (Commissives)، هي الأفعال الكلامية التي تؤدي إلى إلزام المتحدث نفسه بالقيام بفعل معين في المستقبل مبني على شرط الإخلاص، ومن الإلتزاميات أو الوعديات قوله تعالى: (قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى) (سورة طه، الآية 21)، ويتبين من سياق الآية خوف موسى مما حصل من معجزات، ولهذا تعهد الله تعالى من إعادة كل شيء إلى ما كان عليه بقوله: سنعيدها سيرتها الأولى، وهو إعادتها عصا كما كانت قبل، وفي الفعل (سنعيد) التزام من الله تعالى بصيغة المضارع الدال على الجمع؛ لإعادة العصا إلى ما كانت عليه.

3 - الإعلانيات أو التصريحيات (Declarations)، هي الأفعال الكلامية التي تؤدي إلى إحداث تغيير فوري في الوضع الخارجي أو العالم بمجرد النطق بالعبارة في سياق مؤسساتي مناسب، ومن الإعلانيات أو التصريحيات إعلان السحرة إيمانهم في قوله تعالى: (فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى) (سورة طه، الآية 70)، يتضمن سياق الآية الكريمة إعلان السّحرة إيمانهم بربّ العزة وسجودهم له، وتأكيدهم على اتباع دعوة موسى وهارون عليهما السلام، وبالتالي خروجهم عن زمرة الكفر (فرعون واتباعه).

4 - التعبيريات أو المعبرات (Expressives)، هي الأفعال الكلامية التي تعبر عن حالة نفسية تجاه موقف معين أو مشاعر المتحدث، ومن الملاحظ أنَّ التعبيريات توافق إجمالاً السلوكيات في تصنيف أوستين، وقد جاءت التعبيريات في قوله تعالى: (قَالا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَى) (سورة طه، الآية 45)، فموسى عليه السلام يحاور ربه مظهراً له الخوف من طغيان فرعون وإفراطه في قوله تعالى: (إننا نخاف) تعبير عن الحالة النفسية لموسى وما يرافقها من خوف لما هو معروف عن طغيان فرعون، فذكر الطغيان بعد الفرط إشارة إلى أنهما لا يطيقان ذلك(عاشور، 1997، 227).

5 - الإخباريات أو التقريريات (Assertives)، هي الأفعال الكلامية التي تلتزم بصدق القضية المعبر عنها، ووصف العالم كما يعتقده المتحدث، ومن الإخباريات أو التقريريات جواب موسى لله تعالى وإخباره عن العصا، في قوله تعالى :(قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى) (سورة طه، الآية 18)

ويمكن أن يُستخدم هذا التصنيف لتحديد القوة الإنجازية الكامنة في البنى اللغوية في التحليل القرآني عامة، وفي سورة طه في هذه الدراسة خاصة، وذلك بالكشف عن القصد غير المباشر (الاستلزام الحواري)، حيث يكمن عمق التحليل التداولي في الخطاب القرآني في الكشف عن القصد غير المباشر، حيث يأتي الفعل الكلامي بصيغة لغوية معينة (كصيغة النهي الصريح) لكنه يحقق قصداً إنجازياً ثانوياً أو علوياً (كقصد التطمين).

هذا التباين بين القوة اللفظية والقوة القصدية هو ما يُعرف بالاستلزام الحواري (Implicature) الذي هو الفارق بين (الدلالة الحرفية)، وبين (الدلالة الضمنية المقصودة)، والاستلزام الحواري هو الذي يتم الكشف عنه بالاستناد إلى السياق والمقام (عبد الرحمن، 1994، ص47-52)، فعلى سبيل المثال يمكن لتركيب النهي أن يخدم وظائف تداولية كالتطمين أو التصبر، وهو ما يؤكد على الدور الحاسم للسياق في فهم وإبلاغ الوظائف التداولية للأساليب الإنشائية الطلبية في نصوص القرآن الكريم.

المبحث الأول: التداول القصدي في مطلع سورة طه (السياق والمقاصد العامة).

المطلب الأول: السياق النزولي والقصد الكلي (التلطيف والمواساة) (Macro-Intentionality of Surah Taha).

سورة طه هي السورة العشرون في ترتيب المصحف الشريف، وهي سورة مكية بإجماع أهل العلم، إذ نزلت قبل الهجرة النبوية، وقد نزلت بعد سورة مريم في فترة ما بين الهجرة إلى الحبشة والإسراء والمعراج، أي في السنوات المتأخرة من العهد المكي، وقد سُميت بـ (طه)؛ وهذه الفاتحة من الحروف المقطعة التي افتتحت بها بعض السور، وقيل فيها أقوال كثيرة، وتُسمى أيضًا سورة (موسى عليه السلام) لكثرة ما ورد فيها من حديثه وقصته.

وقد نزلت في فترة عصيبة كان فيها النبي محمد صلى الله عليه وسلم يواجه الصدود والعناد من كفار قريش، وسنتناول القصدية ضمن السياق النزولي والقصد الكلي، حيث يحدد السياق النزولي للسورة القصد الإلهي الكلي (Macro-Intentionality)، وهو قصد التثبيت والمواساة، فسبب نزول السورة مرتبط بما قاله أبو جهل والنضر بن الحارث للنبي صلى الله عليه وسلم من أنه يشقى بترك دينهم لما رأوا من طول عبادته واجتهاده.

إن التداول القصدي (التثبيت والمواساة) يظهر جلياً واضحاً من خلال تحليل قوله تعالى: (طَه مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى)، (سورة طه، الآية 1)، حيث تفتتح السورة بتلك الملاطفة الإلهية من منظور الأفعال الكلامية:

• القوة الصورية (اللفظية): الجملة تحمل قوة إخبارية (Assertive) تنفي صفة الشقاء عن الغرض من إنزال القرآن، يقول ابن عاشور: (افتتحت السورة بملاطفة النبي صلى الله عليه وسلم بأن الله لم يرد من إرساله وإنزال القرآن عليه أن يشقى بذلك. أي تصيبه المشقة ويشده التعب) (ابن عاشور، 1997، ص95).

• القوة القصدية (الإنجازية): السياق يحول هذه العبارة إلى فعل كلامي يحمل معنى تعبيرياً (Expressive) وإلزامياً (Commissive) ضمنياً، إذ يتضمن المواساة والتعهد الإلهي بتخفيف العبء النفسي والوعد بالجزاء.

• القصد الكلي: القصد الإلهي هو إبطال دعوى الكفار وإعلان الدعم للنبي صلى الله عليه وسلم، وهذا يرسخ قاعدة تداولية مفادها أن الغاية من الخطاب الإلهي هي الهداية وليس التعسير، وأنَّ القصد هنا تكويني يهدف إلى تثبيت قلب المتلقي الأول (النبي عليه أفضل الصلاة والسلام) لكي يتمكن من إكمال رسالته التي كلف بها.

المطلب الثاني: التداول القصدي في تراكيب حوار النهي من المنع الصوري إلى الوظيفة التلطيفية التثبيتية.

يتجلى القصد الإلهي غير المباشر بوضوح في تراكيب حوار النهي في سورة طه، حيث تستخدم البنية اللغوية (النهي الصريح) لإنجاز وظائف تداولية أعمق وأكثر تلطيفاً (الكريزي، 2014، ص142).

الحالة الأولى: حالة التطمين والتثبيت لموسى وأخيه هارون.

يظهر ذلك في قوله تعالى مخاطباً كلاً من موسى وهارون قبل المواجهة مع فرعون: (لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ)، (سورة طه، الآية 46) ويتعداهما في حوار النهي إلى المؤمنين كافة بأن الله تعالى يسمع ويرى، ويطلع على السرائر، وما تخفيه النفوس.

• القوة الصورية: نهي صريح (Directive) يمنعهما من مطلق الخوف من الذهاب إلى فرعون؛ لأنه معهما يسمع ويرى، فيحفظهما من أي مكروه.

• القوة القصدية: الوظيفة التداولية للنهي هنا هي (التطمين والتثبيت)، فلم يكن القصد مجرد إصدار أمر بالامتناع عن مطلق الخوف، بل إزاحة الخوف النفسي لتمكينهما من أداء الرسالة، فالجملة التعليلية (إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ) تحمل قوة إلزامية إلهية (Commissive) تضمن الرعاية والمؤازرة، مما يرفع الفعل الإنجازي للنهي إلى مرتبة أعلى من مجرد المنع، (وشبه الجملة (مَعَكُمَا) قد ساهمت في بث الطمأنينة لاستحضار معية الله القادر، وذكر السمع والبصر لهما يزيد الاطمئنان إلى رعاية الله التي لا تغيب عنهما)، (حسن، 2020، ص376).

الحالة الثانية: حالة التصبر والإرشاد لتلقي الوحي.

في قوله تعالى: (وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ) (سورة طه، الآية 114).

• القوة الصورية: نهي (Directive) بـ (لا الناهية) عن العجلة في قراءة أو تلقي الوحي، (فالمراد إذا ألا ينصب نفسه ولا غيره عليه حتى يتبين بالوحي تمامه أو بيانه أو هما جميعا، لأنه يجب التوقف في المعنى لما يجوز أن يحصل عقيبه من استثناء أو شرط أو غيرهما من المخصصات)، (جميل، 1420هـ، ص387).

• القوة القصدية: الوظيفة التداولية هنا هي (بعث شيء من التصبر والتهدئة، والبعد عن سبق الأحداث)، حيث يتضمن الخطاب قصداً إرشادياً رفيعاً موجهاً لتنظيم عملية التلقي والتعامل مع النص القرآني، وهذا القصد يتجاوز المنع اللغوي البحت إلى وضع ضابط معرفي ونفسي لاستيعاب الرسالة، ومن ثمَّ تحمُّل أعبائها.

الحالة الثالثة: حالة الالتماس والإرشاد للزهد.

وفي سياق آخر، يقول تعالى: (وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ) (سورة طه، الآية 131).

• القوة الصورية: نهي (Directive) عن التحديق بالنظر والطموح به، فالمنهي عنه هو نظر الإعجاب مما هم فيه من حسن الحال في رفاهية عيشهم مع كفرهم.

• القوة القصدية: الوظيفة التداولية للنهي هنا هي (الالتماس والإرشاد للزهد)، فالقصد الإلهي يوجه النبي إلى المقارنة بين متاع الدنيا الزائل وعطاء الآخرة الباقي، وهو فعل إرشادي يهدف إلى بناء موقف عقدي ونفسي تجاه الماديات، مما يعزز القصد التكويني للخطاب.

المبحث الثاني: تجليات التداول القصدي في سورة طه.

المطلب الأول: الأسلوب الحواري وتحقيق مقاصده التداولية:

يعد الحوار من أبرز السمات الأسلوبية في سورة طه، فجزء كبير من سورة طه يُعتبر ساحة لحوارات مكثفة، أبرزها حوار التكليف الإلهي لموسى، وبعده حوار المواجهة مع فرعون، والحوار بين موسى والسحرة، ويمثل هذا الجزء بيئة خصبة لتحليل القصدية الحجاجية التي تهدف إلى الإقناع وتغيير المعتقدات والسلوك.

أولاً: التداول القصدي للأفعال الكلامية في حوار التكليف الإلهي لسيدنا موسى عليه السلام.

يكشف حوار موسى مع ربه عن تداول قصدي إلهي دقيق موجه نحو تكوين موسى واستعداده لتحمل أعباء الرسالة، وذلك من خلال الآتي:

1 – التداول القصدي في الأسئلة الإلهية غير الاستفهامية.

أ - الحوار العلوي بين الله عزوجل وموسى عليه السلام (النداء والتكليف):

وهذا هو الحوار الأطول والأكثر هيبة في السورة، ويبدأ عند (الوادي المقدس طوى)، ويتسم هذا الحوار باللطف والرحمة في بدايته، ثم بالتكليف والمسؤولية في نهايته حيث اصطفاء موسى للنبوة، وتعريفه بذات الله (التوحيد)، وإعطاؤه المعجزات (العصا واليد البيضاء).

ويبدأ مشهد التكليف في قصة موسى بمناجاة إلهية، تتخللها أساليب نداء متكررة: (يَا مُوسَى)، وقد درس الباحثون هذا الحوار من منظور تداولي، فتبين أن تكرار ضمير المخاطب وأسلوب النداء ساعد على تأكيد العلاقة التوجيهية والتأثير في دعوته، وهذا الحوار يحقق مقاصد عدة منها: التأنيس والتطييب لنفس موسى، والتدريب على تحمل أمانة الرسالة، وإظهار القرب الإلهي لمن اصطفاه الله.

ففي قوله تعالى: (وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى ۞ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى)،(سورة طه، الآية 17-18) يتبين أن السؤال لا يحمل قصداً استفهامياً لطلب المعلومة فحسب، فالله يعلم ما الذي بيمين موسى، بل قصداً تمهيدياً (Performative)، الهدف منه هو تنبيه موسى وتدريبه على وصف الشيء المادي (العصا) الذي سيتحول إلى معجزة، تمهيداً لعملية التحول الخارقة التي ستحدث، فالقصدية هنا تتبلور في (التركيز والإعداد النفسي) قبل البدء بالمهمة الكبرى، يقول ابن عاشور: (وإبراز انقلاب العصا حية في خلال المحاورة لقصد تثبيت موسى، ودفع الشك عن أن يتطرقه لو أمره بذلك دون تجربة لأن مشاهد الخوارق تسارع بالنفس بادئ ذي بدء إلى تأويلها وتدخل عليها الشك في إمكان استتار المعتاد بساتر خفي أو تخييل، فلذلك ابتدئ بسؤاله عما بيده ليوقن أنه ممسك بعصاه حتى إذا انقلبت حية لم يشك في أن تلك الحية هي التي كانت عصاه، فالاستفهام مستعمل في تحقيق حقيقة المسؤول عنه، والقصد من ذلك زيادة اطمئنان قلبه بأنه في مقام الاصطفاء)(ابن عاشور، 1997، ص109).

تُعتبر (العصا) في سورة طه أكثر من مجرد وصف لشيء مادي؛ لقد كانت أداة حوارية وتوضيحية انتقلت من كونها وسيلة بسيطة للرعي إلى معجزة كبرى تكسر كبرياء الطغاة، وسنتناول هنا كيف تطور دور (العصا) في حوارات السورة المتعددة:

1 ـ (حوار التعليم) من (عصاي) إلى (حية تسعى)، حيث بدأ الأمر بسؤال الله لموسى عليه السلام: (وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى)، والغرض: تهيئة موسى نفسياً؛ لأنه لو تحولت العصا فجأة دون تمهيد لفزع موسى، وكأن الحوار الصامت في هذه الآية الكريمة عندما ألقى موسى عليه السلام (العصا) بأمر الله سبحانه وتعالى، وتحولت إلى (حية تسعى)، كان هذا أول درس لموسى بأن الحقائق المادية التي نعرفها (الخشب) يمكن أن تتغير تماماً بقدرة الله، وهذا أعطاه الثقة التامة قبل مواجهة فرعون.

2 ـ (حوار الإسهاب المحبّ) في جواب موسى، فلم يقل: (عصا) ويسكت، بل أطال في الوصف بذكر المسند إليه (هي)؛ لأن موسى استلذّ الكلام مع الله، فأراد أن يطيل الوقوف في مقام المناجاة (إطالة الحوار بسبب شرف المقام)؛ ولذلك كلما ذكر فائدة للعصا طالت مدة حديثه مع ربه؛ ولهذا موسى عليه السلام ذكر الوظائف الأساسية للعصا (الاتكاء، والهش بها أثناء الرعي)، ثم أجمل الباقي في هذه الجملة التي فيها أدب نبوي رفيع (مآرب أخرى) تأدباً مع الله سبحانه وتعالى (وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ)، وكأنه يفتح الباب لله سبحانه ليخبره بفوائد هذه العصا التي لا يعلمها هو، وبالفعل أخبره الله أن أعظم مأرب لها سيكون (المعجزة).

3 ـ (حوار الحجة والبيان) العصا في مواجهة السحر في يوم الزينة، حيث لم يستخدم موسى الكلام فقط، بل استخدم (العصا) كرد بليغ على سحرهم كالتالي:

* الموقف: (سحر بصري)، فقد ألقى السحرة حبالهم وعصيهم التي خُيّل للناس أنها تسعى.

* رد الفعل: ألقى موسى عصاه فكانت تلقف ما يأفكون.

* الرسالة الحوارية: كانت العصا تقول للسحرة: (ما تفعلونه خيال وكذب، وما معي هو حق وحقيقة).

وهذا الحوار البصري هو الذي جعل السحرة يخرون سجداً؛ لأنهم كخبراء عرفوا أن ما فعلته العصا ليس من جنس السحر.

4 ـ (حوار القوة والنجاة) العصا كأداة فصل، وفي نهاية القصة استخدم موسى عليه السلام العصا في حوار مع الطبيعة (البحر)، فكان الفعل الصوري (الأمر): (فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا) (سورة طه، الآية 77)، وكان الفعل الإنجازي (الدلالة) هو: (تحول العصا هنا من أداة إقناع إلى أداة إنقاذ، لتكون الخاتمة الحوارية لفرعون وجنوده هي الغرق، وللمؤمنين هي النجاة).

فهذا الحوار في سورة طه يعلمنا أن الله يُعطي (الأدوات) لمن يحمل (الرسالة)، فكما أعطى موسى العصا لتسانده في حواره، أعطى النبي محمد عليه الصلاة والسلام (القرآن الكريم) ليكون معجزته الحوارية الخالدة.

ب - حوار المواجهة بين موسى وهارون وبين فرعون (القصد الإقناعي).

يوجه الله موسى وهارون في حوارهما مع فرعون بقوله: (فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ) (سورة طه، الآية 44)، وفي هذا التوجيه قصدية واضحة، وهي اعتماد اللين في القول لتحقيق أثر إقناعي في المتلقي المتجبر، والغرض من

هذا الأسلوب هو تحويل فرعون من حالة الطغيان إلى حالة التذكر والخشية، وهما حالتان نفسيتان تؤديان إلى الإيمان.

إنَّ هذا الحوار يهدف إلى نقل الإنسان من عالم الواقع إلى عالم المثال، ويحقق الغاية من الخلق وهي التعارف والتبليغ، ومن خلال تحليل هذا الحوار تبعًا لنظرية الأفعال الكلامية نجد أن الفعل الإنجازي (اللين في القول) يهدف إلى تحقيق فعل تأثيري (Perlocutionary Act) يتمثل في تغيير نفسية فرعون وسلوكه.

فبعد التكليف ينتقل المشهد إلى قصر فرعون حيث يمثل هذا الحوار الصراع بين الحق (القائم على الحجة)، والباطل (القائم على الكبر)، وموضوع هذا الحوار: (دعوة فرعون لتوحيد الله وإرسال بني إسرائيل معه، وذلك من خلال أسلوب طرح فرعون أسئلة استنكارية مثل: (فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ) (سورة طه، الآية 49)، فأجابه موسى بجواب جامع مانع: (رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ) (سورة طه، الآية 50) ، يقول ابن عاشور: (وأجاب موسى بإثبات الربوبية لله لجميع الموجودات جريا على قاعدة الاستدلال بالكلية على الجزئية بحيث ينتظم من مجموعهما قياس، فإن فرعون من جملة الأشياء، فهو داخل في عموم {كُلَّ شَيْءٍ})(ابن عاشور، 1997، ص128).

ج - حوار التحدي والإيمان (بين فرعون والسحرة).

وهذا الحوار يمثل نقطة التحول الكبرى في السورة، حيث تحول السحرة من أدوات في يد الطاغية إلى مؤمنين صابرين، فقبل المعجزة: سأل السحرة فرعون عن الأجر: (وَجَاء السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُواْ إِنَّ لَنَا لأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ) (سورة طه، الآية 113)، وبعد المعجزة: عندما آمنوا، هددهم فرعون بالصلب والتقطيع، فكان ردهم القوي: (فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا) (سورة طه، الآية 72).

د - حوار الحساب (بين موسى والسامري).

وهو حوار قصير وحازم يكشف فيه موسى زيف الدجال الذي أضل القوم، فكان سؤال موسى عليه السلام للسامري سؤال لوم وإنكار: (فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ) (سورة طه، الآية 95)، يقول ابن حيان الأندلسي: (والتقدير أن موسى لما أقبل على السامري باللوم والمسألة عن الأمر الذي دعاه إلى إضلال القول في العجل) (بن يوسف، 1420هـ، ص370)، فكان ردُّ السامري اعترافاً بخديعته فقَالَ: (بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي) (سورة طه، الآية 96)، وهنا ينتهي الحوار بطرده، فعاقبه موسى عليه السلام باجتهاد من نفسه بأن أبعده ونحاه عن الناس وأمر بني إسرائيل باجتنابه واجتناب قبيلته، ثم قام موسى عليه السلام بإحراق العجل.

المطلب الثاني: التداول القصدي في الأمر في حوار الله مع موسى عليه السلام عند الوادي المقدس.

فالقوة الصورية في قوله تعالى: (وَأَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ) (سورة طه، الآية 12) هي (الأمر) من الله تعالى لموسى عليه السلام بأن يخلع نعليه، ويقف حافيا، بينما يتبين أن القوة القصدية أو الوظيفة التداولية (القصد التداولي) من فعل الأمر(فَاخْلَعْ) هو إظهار التقديس والامتثال للأمر الإلهي المباشر، وجعل موسى يعي مكانته أمام الله قبل تلقي الرسالة، يقول ابن عاشور: (تفريع الأمر بخلع النعلين على الإعلام بأنه ربه إشارة إلى أن ذلك المكان قد حله التقديس بإيجاد كلام من عند الله فيه)(بن عاشور، 1997، ص120).

المطلب الثالث: التداول القصدي في الدعاء كطلب للكفاية الإبلاغية.

ففي دعاء موسى عليه السلام (قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي * وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي * وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي * يَفْقَهُوا قَوْلِي)، (سورة طه، الآيات 25، 26، 27) يُحللُ هذا الدعاء كتعبير عن حاجة موسى عليه السلام، وهو فعلٌ كلامي تعبيري طلبي (Expressive)، إلا أن عمقه يكمن في القصدية التي يتضمنها، حيث إنه لا يطلب مجرد العون الشخصي، بل يطلب تحقيق شروط النجاح التداولي (Pragmatic Success Conditions) لرسالته، وإن تفكيك العقدة اللسانية هو طلب لكفاية إبلاغية ضرورية لضمان نجاح الفعل التأثيري في إقناع فرعون وقوم عمَّا جاء به.

المبحث الثالث: تحليل الخطاب الحجاجي، والتداول القصدي في المواجهة مع فرعون.

يمثل حوار موسى وفرعون صراعاً خطابياً حجاجياً بين خطاب التوحيد القائم على الحجة العقلية، وخطاب السلطة القائم على التهديد والتشكيك، والتداول القصدي الإلهي من خلال سرد هذا الحوار هو الإلزام بالحجة وتغيير قناعات المتلقين.

1 - التداول القصدي في الفعل الإخباري الإلزامي.

عندما يوجه فرعون سؤاله التشكيكي لموسى عليه السلام: (قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَى) (سورة طه، الآية 49) ، كان الرد من قبل موسى فعلاً إخبارياً قوياً: (رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى) (سورة طه، الآية 50).

• القوة الصورية: إخبار (Assertive) عن حقيقة الربوبية بإثبات الربوبية لله لجميع الموجودات.

• القوة القصدية: يحمل هذا الإخبار (قوة إلزامية) تهدف إلى إبطال ادعاء فرعون بالربوبية، فالتداول القصدي ليس مجرد وصف للخالق، بل تقديم إثبات شامل يقطع الحجة العقلية على المخاطب، ولذلك نجد أنَّ موسى عليه السلام يستثمر المعرفة الخلفية المشتركة حول الخلق والهداية ليدعم حجته، ولذلك أجاب موسى (بإثبات ربوبية الله لجميع الموجودات جريا على قاعدة الاستدلال بالكلية على الجزئية بحيث ينتظم من مجموعهما قياس، فإن فرعون من جملة الأشياء، فهو داخل في عموم (كُلَّ شَيْءٍ)) (بن عاشور، 1997، ص128).

2 - القصد التأثيري ورد فعل فرعون.

يتجلى القصد التأثيري للخطاب في رد فرعون المتعجرف، عندما لم يجد سبيلاً للمجابهة بالحجة: (قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ)، (سورة طه، الآية 54) فهذا القول هو فعل كلامي إعلاني سلطوي (Declaration) يحمل قصداً تهديدياً مباشراً يهدف إلى تغيير نظرة الجمهور إلى النبي موسى عليه السلام (تأثير سلبي)، وإن فرعون هنا يحاول استغلال سلطته لإحداث تأثير سلبي إبلاغي في أذهان الحضور للتشويش على الحجة القصدية لموسى عليه السلام.

3 - التداول القصدي في تحول السحرة (Ultimate Perlocutionary Success).

تُعد قصة إيمان السحرة بعد رؤية معجزة موسى نموذجاً للنجاح التام للقصد التأثيري الإلهي، لقد أدت الأفعال الكلامية والمعجزة (التي هي فعل غير لغوي ذو قوة إنجازية عليا) إلى تحول جذري في موقف المتلقين، قال تعالى: (فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى) (سورة طه، الآية 70)، وإنما آمنوا بالله حينئذ لأنهم أيقنوا أن ما جرى على يد موسى عليه السلام ليس من جنس السحر؛ لأنهم أئمة السحر فعلموا أنه آية من عند الله.

4 - التداول القصدي في خطاب الإعلان عن القصد الإيماني.

إنَّ تحول السحرة من معارضين إلى مؤمنين يعكس النتيجة النهائية للفعل التأثيري (خطاب السحرة بعد إيمانهم)، فقولهم: (قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ) (سورة طه، الآية 72) هو فعل كلامي إعلاني (Declaration) يحمل قوة تغيير الواقع، ويسقط سلطة فرعون بجرأة إيمانية صارمة، فالتداول القصدي في خطابهم ليس مجرد تعبير عن الإيمان فحسب (Expressive)، بل إعلان لموقف نهائي ومُلزِم، يتحملون تبعاته (فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا) ، (سورة طه، الآية 72) وهذا التحول يؤكد قدرة الحجة القرآنية (والتي تمثلت في معجزة موسى) على الانتصار على الخطاب السلطوي من خلال خطاب عقلاني مؤثر يعتمد على أدوات حجاجية دقيقة.

الخاتمة والتوصيات.

بعد هذا الاستعراض الموجز للتداول القصدي في الخطاب القرآني في سورة طه كأنموذج، يمكن للباحث أن يستنتج جملة من النتائج الجوهرية الآتية:

1 – التداول القصدي جوهر الخطاب القرآني الذب يتسم بقصدية محكمة تظهر في كل مفردة وتركيب وأسلوب، مما يجعله نصًا متماسكًا ومتكاملًا.

2 - وظفت سورة طه آليات تداولية متعددة؛ لتحقيق مقاصدها، منها: الحوار، والإشاريات، وأفعال الكلام (كالأمر والنهي).

3 - أثبت التحليل أن التداول القصدي هو الأداة المنهجية الرئيسية لفهم الوظائف العميقة والدلالات غير المباشرة للخطاب القرآني.

4 - تأكد لنا أن مفهوم القصدية يرتبط عضوياً بالسياق (المقام النزولي والحواري)، ما يوضح أن النحاة والمفسرين العرب المتقدمين كانوا ممارسين للتداولية بالفطرة عندما اعتمدوا المقامات لتحديد المعنى.

5 - إن القول بمركزية السياق في تحديد القصد ليس تجريداً نظرياً، بل هو انعكاس للجهود التراثية لفهم "مقتضى الحال".

6 - أظهر التحليل التطبيقي لسورة طه ثراءً كبيراً في استخدام القصدية غير المباشرة، فالبنى الطلبية الإنشائية، وتحديداً تراكيب النهي، لم تأتِ لتفيد المنع الصوري في غالب الأحيان، بل لتحقيق وظائف قصدية ثانوية عليا، مثل التطمين والتصبر، والإرشاد الحجاجي، وهذا يؤكد أن الخطاب القرآني يستثمر الصيغ اللغوية بأقصى طاقاتها الإنجازية والتأثيرية.

7 - تبين أن القصد الإلهي في سورة طه لم يقتصر على سرد القصص أو الإخبار، بل تعدى ذلك إلى القصد التكويني (تثبيت نفس النبي، وتجهيز موسى للرسالة)، والقصد الحجاجي الأقصى هو (تغيير حال المتلقي عبر الإقناع العقلاني)، وإن نجاح الحوار في تحقيق هذا التغيير (كما في إيمان السحرة) يبرر جدوى المقاربة التداولية في تحليل واستيعاب الحوارات القرآنية.

التوصيات والدراسات المستقبلية:

بناءً على النتائج المتحصل عليها، يوصي هذا البحث بما يلي:

1 - تعميم المقاربة التداولية: يوصى بضرورة توظيف نظرية التداولية في تحليل البلاغة القرآنية على نطاق أوسع، خصوصاً في ربط أهداف السور ومقاصدها الكلية بالقصد الإلهي في الخطاب، والتركيز على الأفعال الكلامية في السور المدنية والمكية ومقارنة وظائفها القصدية.

2 - تحقيق الانسجام المنهجي: تدعو الدراسة إلى مزيد من الجهد البحثي الذي يهدف إلى تحقيق الانسجام بين المفاهيم التداولية المستوردة والتفسيرات التقليدية العميقة. يجب التركيز في الدراسات المستقبلية على دور المعرفة الخلفية (Background Knowledge) المشتركة بين المرسِل الإلهي والمستقبل البشري في نجاح الفعل الكلامي الإلهي.

3 - تطوير مدونة تحليلية: يقترح إنشاء مدونة تداولية مصنفة للخطاب القرآني؛ تهدف إلى رصد وتوثيق جميع الأفعال الكلامية الإخبارية والإنشائية، وتحديد وظائفها القصدية، وإبراز دور القرائن اللغوية والسياقية في عملية تحديد القوة الإنجازية لكل فعل.

قائمة المصادر والمراجع:

- ابن عاشور، محمد الطاهر. (1997). التحرير والتنوير. دار سحنون للنشر والتوزيع.
- أوستين، (1991). *أفعال الكلام العامة: كيف ننجز الأشياء بالكلمات* (عبد القادر قنيني، مترجم). دار أفريقيا الشرق.
- بحيري، سعيد حسن. (1997). *علم لغة النص: المفاهيم والاتجاهات*. الشركة المصرية العالمية للنشر.
- البخاري، محمد بن إسماعيل. (1987). الجامع الصحيح (ط. 1). دار الشعب. (العمل الأصلي نُشر 256هـ)
- بن يوسف، محمد. (1420هـ). *تفسير البحر المحيط* (صدقي محمد جميل، محقق). دار الفكر.
- ثابت، عبد العزيز، وبوطالي، فيصل. (د.ت.). تجليات القيم الإنسانية في مقاصد القرآن في الكتابات المعاصرة. مجلة المعيار.
- جبريل، مبروكة الشريف. (2002). النص والقراءة: من البنيوية إلى التفكيكية. مج1، عدد2، مجلة العلوم الإنسانية، (جامعة سها).
- الحداد، مصطفى. (د.ت.). اللغة والفكر وفلسفة الذهن. منشورات جمعية الأعمال الاجتماعية والثقافية لكلية الآداب بتطوان.
- حسن، معاذ وليد. (2020). تداولية تركيب النهي في سورة طه. *مجلة الجامعة الإسلامية* (الجامعة الأردنية).
- زيان، محمد. (2018). الحوار القرآني؛ أبعاده ومقاصده التداولية، سورة "طه" أنموذجًا. مج 13، عدد2، *مجلة معارف*.
- السعيدي، عبد الكريم محمد صالح. (2022). الإحالة الضميرية: مقاربة تداولية في اتساق الخطاب القرآني (ط. 1). منشورات دار الوليد.
- السمّاك، غازي. (2022). نقد المنهج القصدي في تفسير القرآن الكريم. كتابات.
- سيرل، جون. (1969). أفعال الكلام: مقال في فلسفة اللغة (ط. 1).
- سيرل، جون. (1983). القصدية: مقال في فلسفة العقل. مطبعة جامعة كامبريدج.
- الشرقاوي، أحمد محمد. (1428هـ). الحوار القرآني في ضوء سورة الأنعام. كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة الشارقة.
- شمخي، محمد صادق. (2025). الأبعاد الإشارية في سورة طه (مقاربة تداولية). مجلة دجلة للعلوم الإنسانية (جامعة دجلة).
- صحراوي، مسعود. (2005). التداولية عند العلماء العرب: دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي (ط. 1). دار الطليعة للطباعة والنشر.
- عبد الرحمن، طه. (1994). في أصول الحوار وتجديد علم الكلام (ط. 2). المركز الثقافي العربي.
- عبد الرحمن، طه. (1998). اللسان والميزان. المركز الثقافي العربي.

- عبد القوي، محمد سند. (2022). الأفعال الكلامية في سورة طه. *مجلة كلية الآداب* عدد14، (جامعة الحديدة).
- القرآن الكريم. (رواية حفص عن عاصم الكوفي).
- الكريزي، فؤاد بن أحمد بن المختار. (2014). دلالة النهي في القرآن الكريم: دراسة في ضوء القصد الإلهي (ط. 1). دار الكلمة للنشر والتوزيع.
- المصري، محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي. (د.ت.). *لسان العرب، ج3* (ط. 1). دار صادر.
- موقع أهل الحديث. (د.ت.). http://www.ahlalhdeeth.com
- النجار، عبد الوهاب. (1986). قصص الأنبياء (ط. 7). دار إحياء التراث العربي.
- نحلة، محمود أحمد. (2002). آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر. دار المعرفة الجامعية.